الحمار الفصيح

تأليف : أحمد صبيح
رسوم : أحمد عبد النعيم

صبيح، أحمد.
الحمار الفصيح/تأليف أحمد صبيح، رسوم أحمد عبد النعيم
- ط١.- القاهرة: دار الطلائع للنشر والتوزيع، ٢٠١٣ .
٤٨ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٣ ٧٢٧ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- قصص الأطفال
٢- القصص الغريبة
أ- العنوان ٨١٣.٠٢
رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٦٤٤
الترقيم الدولي: 978-977-277-727-3

تصميم الغلاف والرسوم:
أحمد عبد النعيم

● جميع الحقوق محفوظة للناشر ●

يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي سابق من الناشر، وأية استفسارات تطلب على عنوان الناشر.

تطلب جميع مطبوعاتنا من وكيلنا الوحيد بالمملكة العربية السعودية

مكتبة الساعي للنشر والتوزيع

ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ ـ هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ ـ ٤٣٥١٩٦٦ ـ ٤٣٥٩٠٦٦
فاكس: ٤٣٥٥٩٤٥ جوال: ٠٥٥٠٦٧١٩٦٧
E-mail: alsaay99@hotmail.com

مطابع العبور الحديثة – القاهرة
تليفون: ٤٦٦٥١٠١٣ فاكس: ٤٦٦٥١٥٩٩

دار الطلائع
للنشر والتوزيع والتصدير
٤٢ شارع علي أمين امتداد مصطفى النحاس ـ
مدينة نصر ـ القاهرة
تليفون: ٢٤٠١٥٢٧٨ - ٢٤٠١٥٢٧٩ (٢٠٢+)
فاكس: ٢٤٠٤٣٨٠٢ (٢٠٢+)
E-mail : info@altalae.com
Web site: www.altalae.com

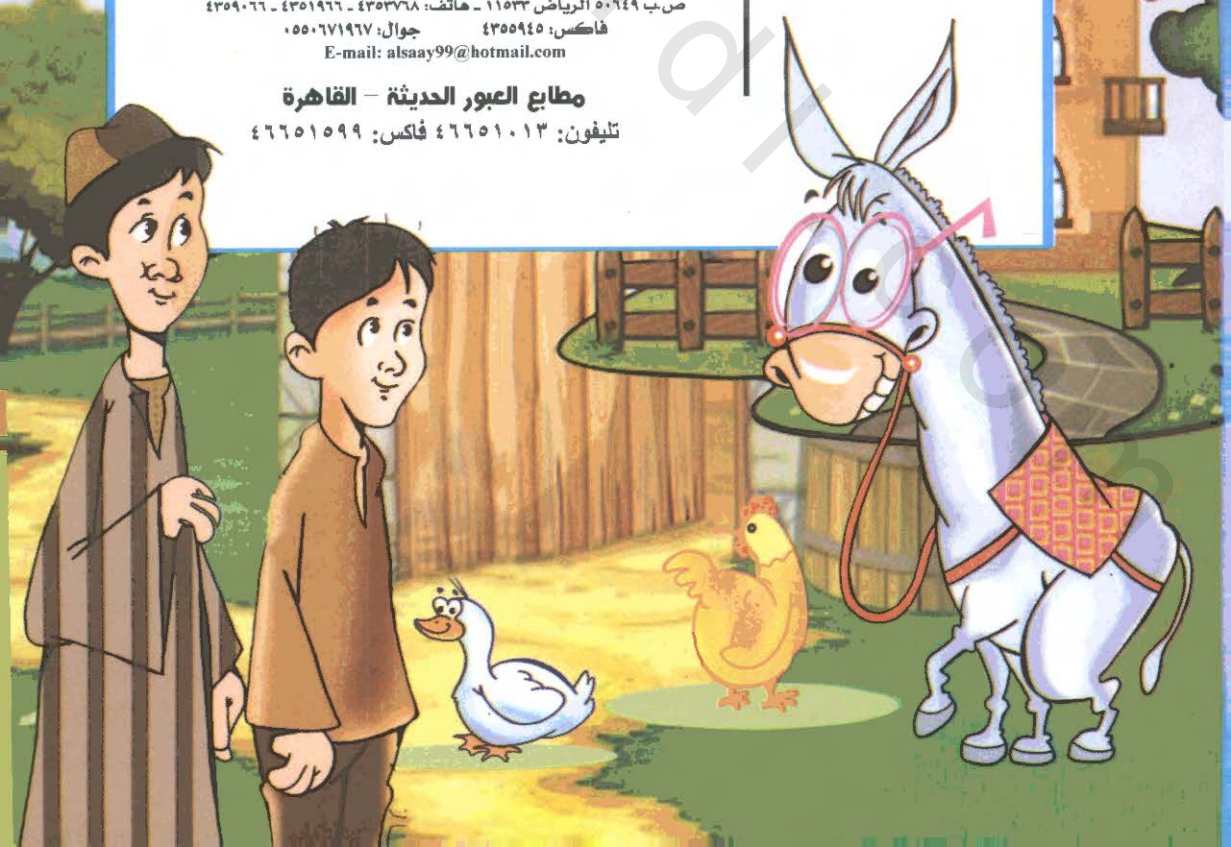

أبو عبد الله رجل فقير، لكنه غني بحب الناس، يحافظ على صلاته بالمسجد .. وكثيرًا ما أسعد بالحديث معه، والاستماع إلى حكايات قريتنا القديمة .

أبو عبد الله يملك حمارًا وعربة صاج ذات عجلات أربع .. والحمار أنهكه العمل المستمر خلال عدة أعوام: منذ أن وعيت على هذه الدنيا وجدت هذا الحمار الأسود اللون ذا الجسم النحيل عند أبي عبد الله، وعربته الصاج المكونة من أربع عجلات من الكاوتش الذى اشتكى من ترقيعه أكثر من مرة .

أبو عبد الله يعمل كما يُقال «عربجي» أى يقوم بحمل الأشياء التي يراد حملها من مكان إلى آخر، ويتقاضى مقابل ذلك أجرا زهيدا، وأعرف أن أبا عبد الله لا يجادل في قيمة هذه الأجرة، يرضى بأي مبلغ تعطيه له، ويحمد الله على ذلك، وحماره وعربته الكارو القديمة هما مورد رزقه، وهما رأس ماله الذي يملكه في هذه الدنيا.

أبو عبد الله أراه رجلاً يقتربُ عمرُه من الأربعين، تظهر عليه علاماتُ المشيبِ خاصةً في شعْرِ رأْسِه ولحيته، والتقسيماتُ والخطوطُ الجلديةُ التي تعلو جبهتَه تعطيه سنواتٍ فوق عمرِه الحقيقيِّ من كثرةِ الشقاءِ ومتاعبِ الحياة، ومع ذلك ترى وجهَهُ مبتسمًا راضيًا بما قَسَمه الله له، وله من الأبناءِ خمسةٌ أكبرهم عبدالله، حباه الله بزوجةٍ صالحةٍ.

يسكنُ أبو عبدالله وأسرتُه في منزلٍ ريفيٍّ صغيرٍ مبنيٍّ بالطوب اللَّبِنِ، وسقْفُه من الخشبِ مكوَّنٌ من حجرتين ودورة مياه، وملحقةٌ بالمنزلِ غرفةٌ أخرى سقفُها من جريدِ النخلِ والغابِ وقش الأرز تسمى «زريبة»، أي بيت الحيوانات، يعيش فيها حمار أبي عبدالله .. ولكي تدخلَ هذه الزريبةَ لابد أن تدخلَ بيت أبي عبدالله، ثم تجدُ فسحةً من الأرضِ دون بناءٍ ولا سقفٍ لتصلَ إلى غرفةِ الحمارِ المظلمةِ التي لا توجد بها نوافذ .

يبدأ أبو عبدالله عملَه مبكرًا بعد صلاةِ الفجرِ، وينتهي عند غروبِ الشمسِ ليستعدَّ لصلاةِ المغربِ حامدًا اللهَ ـ عز وجل ـ بما رزقَه من فضْلِه، لا يشتكي حاله لأحدٍ .. قليلُ الكلامِ لسانه يُسبِّحُ الله دائمًا في كل وقت، في أثناء عملِه وفي وقت راحتِه .

أنا اسمي أحمد في الصفِّ الثالثِ الإعداديِّ، وأخي محمدٌ يصغرني بسنتين، والدنا الحاج صلاح قد حباه الله برزقٍ وفيرٍ، يزدادُ هذا الرزق يومًا بعد يوم ؛ لأن والدي يعرفُ حقَّ الفقراءِ في هذا الرزقِ ويضعُ أمامه دائمًا الآية الكريمة .

﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ ﴾

[المعارج: 24-25].

بل الأكثر من ذلك فإن والدي يبحث عن الناس الذين قال القرآن الكريم في حقهم : ﴿ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ ٢٧٣ ﴾ [البقرة: 273] .

رَبّانا والدي ـ بارك الله فيه وزاده من فَضْله – أحسنَ تربيةٍ، غرسَ فينا التواضعَ وحبَّ الناسِ، ومساعدةَ الضعيفِ والغلبان وذي الحاجة فى السر والعلانية، والمواظبةَ على الصلاةِ في جماعةٍ وتفضيلَ الليلِ على النهارِ عند توزيع الصدقاتِ ومساعدةَ أهلِ القريةِ المغلق عليهم أبوابهم لا يسألون الناس إلحافًا وهم محتاجون لكنهم حامدون الله على ما أعطاهم. نحمد الله عز وجل أن يَسَّر لأبي النعمة ونحن امتداد لأبى بعد عمر طويل مجيد بإذن الله.

طوال العام نسعدُ بتوزيع الصدقاتِ التي يُشْركُنا فيها أبي، بتكليفنا بها، أشياء كثيرة لا نعلمُها يقوم بها أبي ونسمع عنها من الغيْر، نسعدُ بسماعها، يزداد العطاءُ فى شهرِ رمضانَ، شهرِ الخيرِ والبركاتِ والرحمةِ والمغفرةِ والعتقِ من النارِ .. شهر الغني والفقير، حيث لا حقدَ ولا كُرهَ ولا حسدَ ولا تباغضَ.

ففى السنة الثانية من الهجرة النبوية جاء أول انتصار بعد ظهور الإسلام فى شهر رمضان وذلك فى غزوة بدر الكبرى التى أيد الله رسوله فيها بجنود من الملائكة ضاعفوا من قوة جنود المسلمين رغم قلة عددهم وتحقق بهم النصر المبين الذى كان فاتحة خير لانطلاق دعوة الإسلام، وفى العصر الحديث حدث انتصار حرب السادس من أكتوبر سنة 1973 العاشر من رمضان الذى حقق لمصر معجزة الانتصار على إسرائيل وتحطيم أسطورة الجيش الذي لا يقهر ليظل هذا اليوم رمزًا لانتصار الإرادة وانتصار الكرامة المصرية.

وأبي يذكِّرنا أنا وأخي محمد بليلة العاشرِ من رمضان في كل عام .. والليلة كَلَّفنا أبي بتوزيع مبالغ معينة على أناس فى بيوتهم . مغلقة على أهلها، كلُّ مبلغٍ موضوع داخل مظروفٍ مغلق لأناس معينين مكتوبة أسماؤهم على المظروف من الخارج علاوة إلى عدة مظاريف أخرى بدون أسماء إذا قابلنا أحدٌ أو وجدنا أمرًا طارئًا يحتاج لتدخلنا بالمساعدة نعطيه أحد هذه المظاريف .. هذه توجيهاتُ أبي .

بعد الانتهاءِ من تأديةِ صلاةِ العشاءِ وصلاةِ التراويحِ .. بدأنا تأدية الواجب المكلفين به ونحب تأديته.

بدأنا بالذهاب إلى منازل الأيتام والمساكين تنفيذًا لتعليمات أبي حتى لا نثقل عليهم ونزعجهم ونقلق منامهم ثم المبتلين كمن فقد عضوا من أعضائه أقعده على العمل

ثم ذوي الحاجة وأخيرًا الفقراء

الذين يحسبهم الناس

أغنياء من التعفف.

ومن هذه المنازل كان منزل أبي عبدالله مؤذن المسجد صاحب العربة.

طرقْنا بابَ بيتِ أبي عبدالله عدة طرقات وانتظرنا متخذين ساترًا على إحدى جانبي الباب حتى لا نجرح حُرمة المنزل وانتظرنا ثم طرقناه مرة أخرى وظننا أنهم نائمون .. وكدنا ننصرفُ لنعودَ في الليلة التالية حتى سمعنا صوتًا يقول : مَنْ الطارق ..؟ فقلت : أنا أحمد صلاح وأخي محمد.

فخرجَ إلينا أبو عبدالله وصوتُه متحشرجٌ بالدموع .

ـ السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه يا أبا عبدالله .

ـ وعليكم السلامُ ورحمةُ الله وبركاته .. أهلاً بكما تفضلا .

ـ شكرًا لك يا أبا عبدالله، كلُّ عامٍ وأنت بخير .

ـ وأنتم بكل خيرٍ وسلامٍ .

ـ تفضَّلْ يا أبا عبدالله تقبل هذا المظروف .

ـ ما هذا يا ابناي وما بداخلِ هذا المظروف ؟.

ـ بداخله مالٌ أرسلَه الله إليك عن طريق أبي .. ونحن أحضرنا لك هذه الأمانةَ فتقبلها يا أبا عبدالله .. فبكى أبو عبدالله واشتدَّ بكاؤه .

ـ ما يبكيك يا أبا عبدالله ؟

ـ لا شيء يا بني .. الحمدُ لله .. بارك الله فيكما وأطال الله فى عمر أبويْكما الصالحيْن .

أثناء حديثنا مع أبي عبدالله ونحن واقفون على باب منزله، سمعنا صوتَ عبدالله الذي يبلغ من العمر عشْرَ سنواتٍ : لقد مات الحمارُ .

ـ أهذا الذي يبكيك يا أبا عبدالله ؟!

ـ نعم أبكي على فِراقِ هذا الحمارِ بعد طول عِشْرةٍ .. إنه موردُ رزْقي ورزقِ أولادي .

- خُذْ يا أبا عبدالله هذين المظروفين مساهمةً في شراءِ حمارٍ يعينك في عملك .

ـ ما هذا يا ابناي ؟، وماذا تفعلان ؟! هذا ليس مالي .. اذهبا وأعطياه لمن يستحقه، أنا أخذت والحمد لله .

ـ لا يا أبا عبدالله، هذا مال زائد على الأسماء التى كلفنا بها والدي لتوزيعها.

رفض أبو عبدالله أخذَ أي نقودٍ أخرى غير التي كُتب عليها اسمه وبعد عدة محاولات وأمام رفضه رضخْنا للأمرِ الواقعِ وعُدْنا إلى منزلنا فوجدنا والدي نائمًا لينعم بالنوم وليستريح لدقَائق معدودة ساعتين أو ثلاث قبل استيقاظه لتناول وجبة السحور والذهاب سويًا لصلاة الفجر في المسجد .

عدنا من صلاةِ الفجرِ ودخلنا غرفَتنا واحتوانا نومٌ عميقٌ لم نستيقظْ منه إلا قبل صلاةِ الظهرِ . فنحن في عُطلةٍ مدرسية فشهرِ رمضانَ هذا العام جاء في العطلةِ الصيفية .. فما علينا غير السهر ليلاً والنوم حتى أذان الظهرِ وهذا غيرُ صحيٍّ، ولم نتعودْ عليه لكن ليالي رمضان ليالي جميلة كلُّها تَعَبُّد لله من إقامة الصلوات الخمس والتراويح والتهجد، وما أحلى الصلاة قبل صلاة الفجر والإكثار من فعلِ الخيرات.

ويأتي والدي من شركته فهو رئيس مجلسِ إدارة الشركة قبل آذان المغربِ بقليلٍ يؤذن المؤذن حتى يتناولَ كلُّ مَنْ في بيتنا عدةَ ثمراتٍ وشربةَ ماءٍ ثم نَذهبُ بصحبةِ والدي لصلاة المغرب بالمسجد ثم نعودُ لتناول ما حبانا الله من رزقٍ نأكلُ ونشربُ مبتدئين «بسمِ الله الرحمن الرحيم» ، ثم نشكرُه ونحمدُه على نعمه الكثيرة وأن يتقبلَ صيامنا وفي الوقت الفاصل بين صلاةِ المغربِ وصلاةِ العشاءِ جلسنا نسردُ ونقصُّ ما حدث لنا بالأمس .

ـ لقد مات حمارُ أبي عبدالله يا أبي وهو موردُ رزقه.

ـ وماذا فعلت يا بني؟

ـ لقد عرضتُ عليه ما تبقَّى معي من مال، وحضرتك أعطيته لنا لمثل هذه الظروف.

ـ وماذا كان رَدُّ أبي عبدالله ؟

ـ رفض يا أبي بشدة وقال هذا ليس من حقِّي وما كان علينا إلا أن نتركه لحاله.

ـ أنتما وأبا عبدالله جزاكم الله كلَّ الخير .

ـ وماذا سنفعلُ يا أبي ؟

ـ بدون تفكيرٍ سنشتري له حمارًا آخر أو سنعطيه حمارًا من عِزْبتنا.

ـ نعم يا أبي نُعطيه الحمارَ المنقطَ الأبيض في الأسود إنه يضربُ برجليْه الخلفيتين بشدة في أثناء ركوبي عليه وكان سيوقعني من فوقه أكثر من مرة أو نعطيه الحمارةَ السوداءَ لقد كبرت وأصبحت هزيلة .

ـ ماذا تقول يا أحمد لقد أحزنني كلامُك.

ـ لماذا يا أبي ؟

ـ يا بني الصدقة لوجه الله سبحانه وتعالى أن نُخرجَ أحسنَ ما عندنا وليس الشيء الذى نريد أن نتخلص منه.

ـ يا أبي أنا أقصدُ أن الحمارَ سيشد عربةً وسيعمل في أعمال شاقة فلايفرق معه أي شيئ.

ـ لا يا أحمد سأعطيه أحْسَن حمارٍ عندنا.. سأعطيه الحمارَ الفصيحَ.

ـ الحمار الفصيح .. أصل ..

ـ ماذا بك يا أحمد تكلم .

ـ هذا حماري .. أحبُّ أن أركَبه عندما أذهب إلى العزبة .

ـ عندك الحصانُ يا أحمد والفروسية أن تركب الجوادَ وليس.

ـ سمعًا وطاعةً يا أبي .

ـ وأنت يا أحمد ستأخذُ السيارةَ المخصَّصَةَ لحملِ الحيوانات وأنا سوف أكلفُ السائقَ بذلك اليوم بإذن الله بعد صلاة التراويح ليحضر الحمارَ من العزبةِ وتوصلاه إلى منزلِ أبي عبدالله .

ـ إن شاء الله يا أبي سأفعل ذلك .. وأستأذنك يا أبي سنذهب لصلاةِ التراويحِ.

ـ تفضَّلا .. بارك الله فيكما .

وذهبتُ أنا ومحمدٌ أخي لنصلي العشاءَ والتراويحَ في مسجد الشيخ سعيد.. فنحن نصلي أنا وأخي كلَّ يوم في مسجدٍ جديدٍ من المساجد المنتشرةِ والموجودةِ بفضل الله في بلدتنا يوم في مسجد أبي بكر ويوم في مسجدِ الحمامصة ويوم في مسجدِ الشيخ فيَّاض ويوم في المسجد الكبير وآخر في مسجدِ المحطةِ.. وهكذا . وذلك كما علمنا أبي لنأخذ حسنات أكثر في كثرةِ السعي إلى المساجد وأحيانًا أخرى نصلي في مسجد العزبة الذي شيده أبي وعمِّي ليصلي فيه أهالي المنطقة المحيطة بالعزبة .. استحوذ على فكري الشيطان الرجيم كيف يأخذ أبي الحمارَ الفصيحَ ويعطيه لأبي عبدالله ؟ .. إنه حماري كيف أتركه بكل سهولة .. أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. لابدَّ أن أنفذ كلامَ أبي .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وبعد أن انتهينا من أداءِ صلاةِ العشاءِ وصلاةِ التراويح ذهبتُ إلى مكانِ وجودِ عرباتنا فوجدتُ السائقَ يُسري داخلَ السيارةِ المجهزةِ لحملِ الحيوانات واتجهنا إلى العزبة فهي تبعد عن بلدتنا ما يقرب من ساعةَ بالسيارة .

وصلنا إلى العزبة وجدتُ ناظرَ العزبةِ المسئولِ عن العمل بها عنده علم بالموضوع فقد جهز الحمارَ الفصيحَ أقْوى وأجملَ الحميرِ في حظيرتنا .

قام عم «على» بسحب الحمار من الزريبة غير عابئ باعتراض أمِّه الحمارةِ السوداءِ التي أخذت تلوك بفمها السباب لأنه تركها تعانى عذاب الوحدة وفراق ابنها..!

الحمارُ الفصيحُ لم يعجبْه القرارَ .. قرارَ خروجه من العزبةِ .. نهق ورفس برجليه متشبثًا بوضعه الحالي وضربَ برجليه الخلفيتين مرتين للوراء معلنًا اعتراضه.

وأخيرًا رضَخَ للأمرِ الواقعِ وأسلمَ أمرَه لله وسلَّم نفسَه لعمالِ العزبةِ ليضعوه على السيارةِ .

وانطلْقنا عائدين إلى بلدتنا متجهين إلى منزل أبي عبدالله .

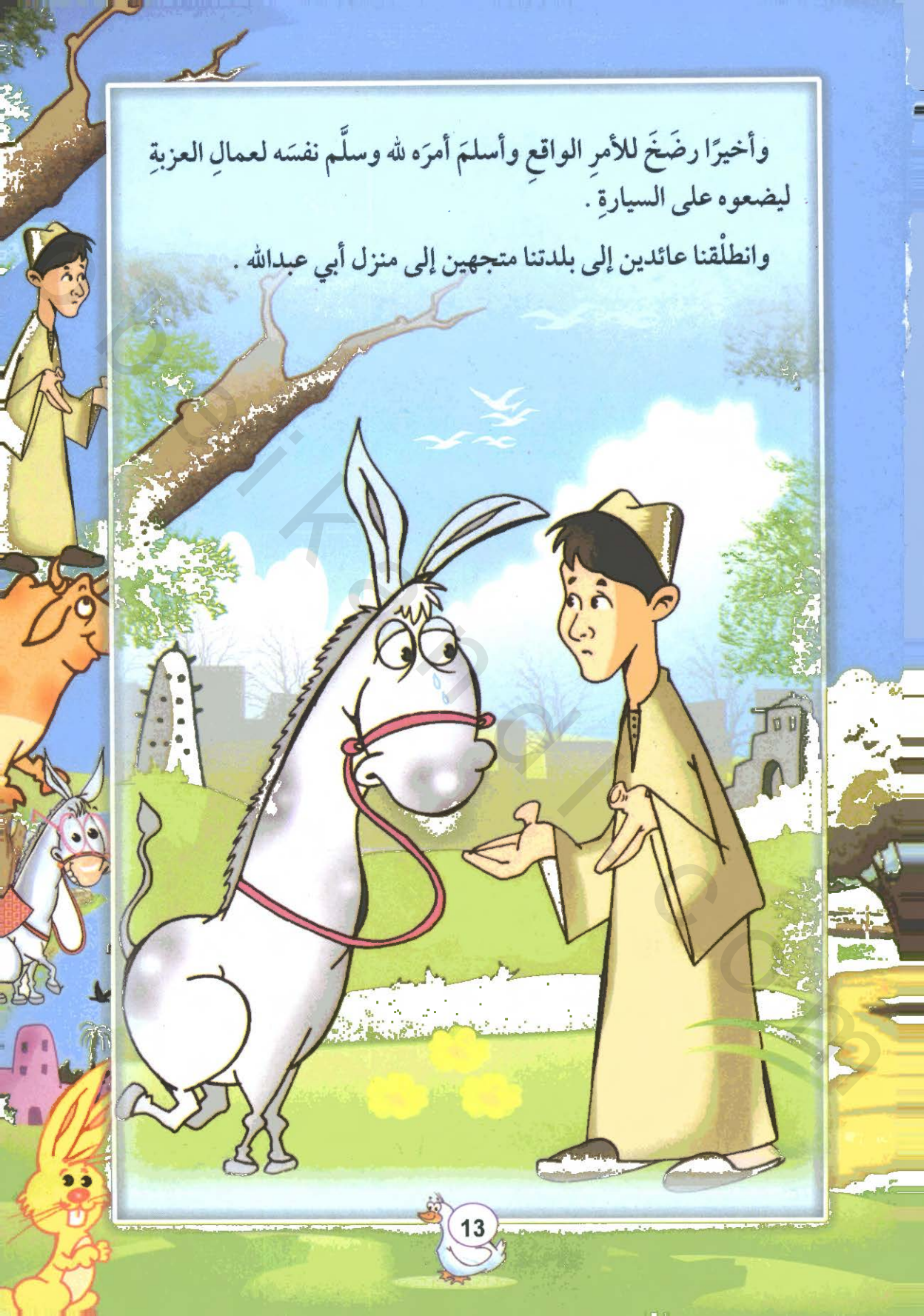

وصلْنا إلى منزلِ أبي عبدالله، وقبل أن نطرقَ البابَ وجدنا أبا عبدالله يفتحه.

ـ السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه يا أبا عبدالله .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ـ هيَّا ساعدْنا في إنزال حمارِك من على السيارة يا أبا عبدالله .

ـ حماري .. حماري مات .. وسوف أشتري واحدًا غيره غدًا إن شاء الله، فقد اتفقت مع أحدِ التجارِ أن أُعطِيَه نصفَ المبلغِ وأقسطَ الباقي على عدة شهور، واتفقنا على ذلك .

ـ لقد عَوَّضك اللهُ خيرًا من حمارِك السابقِ.

ـ ومَنْ الذي أرسله. أنا لم أقلْ لأحدٍ أريدُ حمارًا .

ـ أرسله الله لك عن طريق والدي.. أحسن حمارٍ عندنا في العزبة.

ـ الله يكرم أباك يا أحمد ويزيده من فضله ويبارك فيكم.

ويبكى أبو عبدالله.. تأثرًا من كرم الله عليه .

وبعد أن أنزلنا الحمارَ من على السيارةِ أخذ أبو عبدالله يشدُّه بالحبلِ ليدخلَه إلى منزله.

يرفُضُ الحمارُ الدخولَ.. وينهق نهيق المعترضِ.. كيف ذلك؟

فأخذ أبو عبدالله يضربُه بجلدةٍ صغيرةٍ في يده .

ـ لا يا أبا عبدالله لا تضربْه.. حافظْ عليه إنه حمارٌ مطيعٌ .. اهتم به وتعامل معه بلطفٍ وبرفْقٍ ورحمة لأنه سوف يساعدك في عملك بإذن الله .

ـ أعلم ذلك يا أحمد أنا أضرب ضرب الحبيب لتوجيهه، وليس ضربًا مبرحًا.

ـ اتركه لي يا أبا عبدالله، وأنا سوف أدخلُه وأعطاني الحمارَ وربت بيدي على رأسه بلطف ورقّة وعلى باقي جسده النظيف وقلت له: أدخل يا فصيح هذه دارٌ جديدةٌ وأبي اختارك أنت لتساعد هذا الرجل الفقير في المال والغنى بتقوى الله.. فدخل مُرغمًا!

وينهق الحمار نهيقًا متقطعًا .. يبدأ بصوتٍ عالٍ وينخفضُ حتى يكاد يصل إلى البكاء .. وصوت حاله يقول:

أتأخذني من العزِّ والنظافةِ والأكل الحلو إلى هذه الغرفةِ المظلمةِ المتسخةِ بروثِ الحمار المتوفى ومخلفاته؟.. حرام عليك يا أحمد، أبو عبدالله لا يستطيع أن يطعم أولادَه فكيف يطعمني!

أربتْ بيدي على ظهره كعادتي عندما كنت أمتطيه .

ارْضَ بحالك يا فصيح كانت الحميرُ كلُّها تعمل له ألف حساب .

كان يدافعُ عنهم ويتكلمُ نيابة عنهم وكانَ أقواهم وأنظفهم وأكثرهم عزة بنفسه .. الآن اختلفت مهمتُك.

ستجرُّ عربةً محملةً بأشياء لم تحملْها من قبل .. سترى طرق ممهدةً وغيْرَ ممهدةٍ لم ترها من قبل .. سيحدثُ لك أشياءُ كنت تسمع عنها.

يبكي الحمار، وينهق قائلاً :

ـ لماذا يا أحمد يُفعل بي هكذا.. ماذا ارتكبت من جرم ليعاقبني والدك عليه؟

ـ ليس هذا عقابًا يا حمارنا الفصيح .. وإنما هذا هو حالُ كلِّ البشرِ يا فصيح .. لا يبقى الحال على ما هو عليه.. هناك أناس يعيشون

في قصور وفيلات ويأكلون أحسن أكل وأناس لا تجد بيتا يسترها ولا يجدون ما يأكلون.. وفجأة قد ينقلب الحال فيصبح الغني فقيرًا والفقير غنيا.. لأسباب يطول شرحها ولن تفهمها.

- لكن الله أوجدني في مكان فيه العز في عزبتكم يا أحمد أنا أجد أكلًا متنوعا وصحيا وأشرب مياه نظيفة وعندما تحضر الى العزبة أدور بك قليلًا وأنتهى وهذا كان عملي فكيف يتغير الحال هكذا في لحظة؟

- هذا ليس حالك أنت فقط يا فصيح مثلما قلت لك هذا حال البشر والبشر يعنى الإنسان المخلوق الضعيف ذو الإحساس المرهف.. أما أنت يا حمار فربنا خلقك حمولا تتصف بالصبر وقوة التحمل والغباء مع انك أنت حمار مميز غير كل الحمير.. حمار فصيح.

ـ أرجوك يا أحمد وصِّى علىَّ أبا عبدالله ألا يضربني وأن يحمينى كل يوم وينظف لي مكاني أولًا بأول أنت تعرف يا أحمد أنا تربيت على النظافة ولا أحب القذارة وأن يهتم بتنويع أكلي ليس كل يوم برسيم أو أعواد ذرة عليق أو فول عليق.. التنويع مفيد لي وذلك حتى أستطيع الاستمرار معه.

ـ وماذا إذا لم يفعل ذلك أبو عبدالله؟

ـ سيكون مصيري مثل الحمار السابق.

أنا متأكد أنه مات بسبب إهمال أبي عبدالله في كل الأشياء التي ذكرتها لك.

ـ حاضر سوف أوصيه من أجلك.

وأوصى أبا عبدالله أمام الحمار.. ويرى أبوعبدالله الدمعةَ تسقطُ من عيني برغم محاولتي لإخفائها ليربت على كتفي قائلًا: «جزاك الله كل خير يا أحمد يا بنى».

ـ وبارك الله لك يا أبا عبدالله في الحمار الجديد، وأوصيك خيرًا به، واسمح لي أن أحضر هنا لأراه من وقت لآخر .. وأَشركني في أي شيء خاص به.

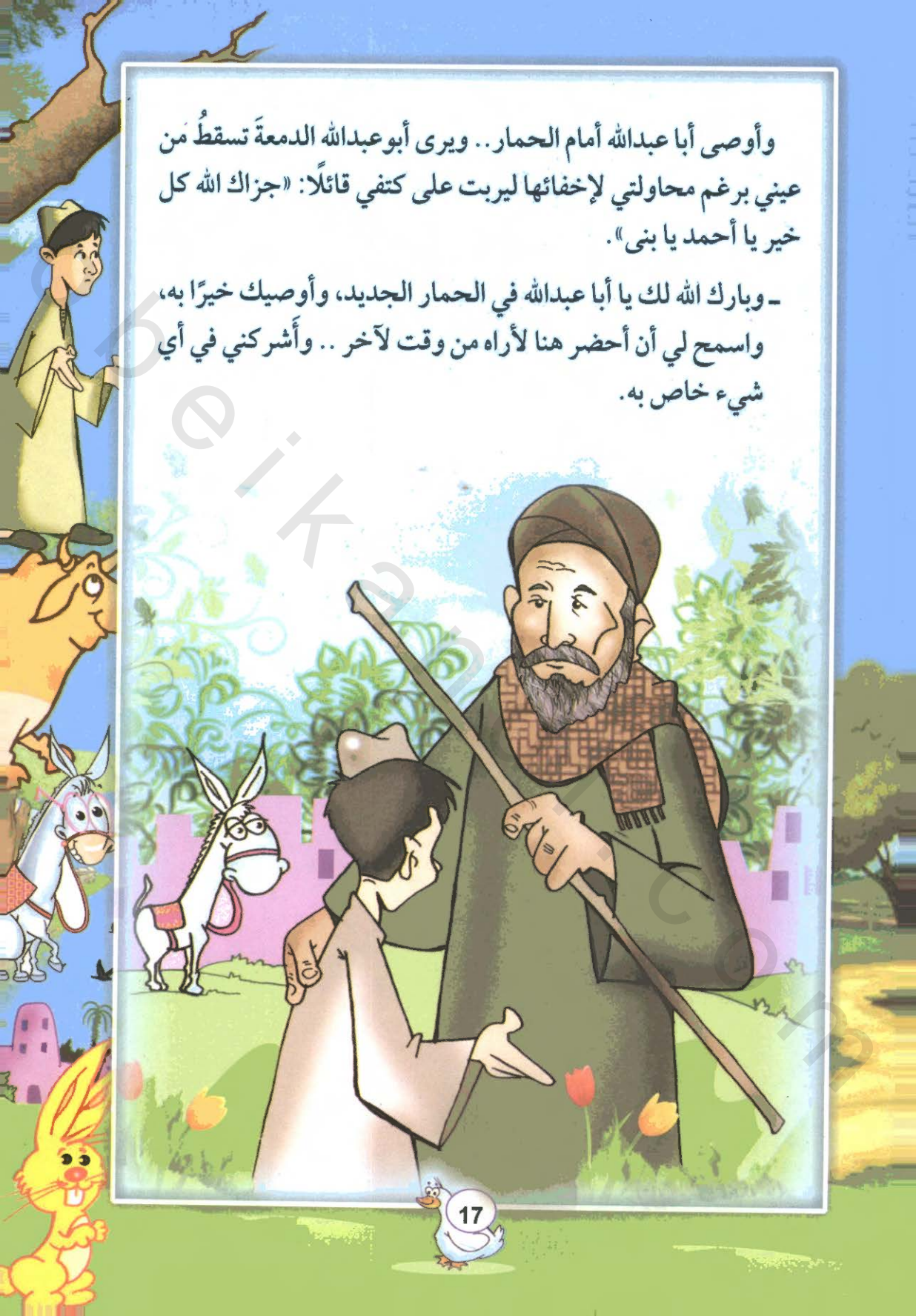

ولم تمض سوى عدة أيام قليلة حتى قابلت أبا عبدالله عندما كنت أسير بجوار المسجد الذى يقيم شعائره الدينية فيه.. وسمعت صوتًا جميلًا يرفع أذان العشاء، فدخلت وأديت صلاة العشاء، وبعد أن خرجنا من المسجدِ دار الحديثُ بيننا:

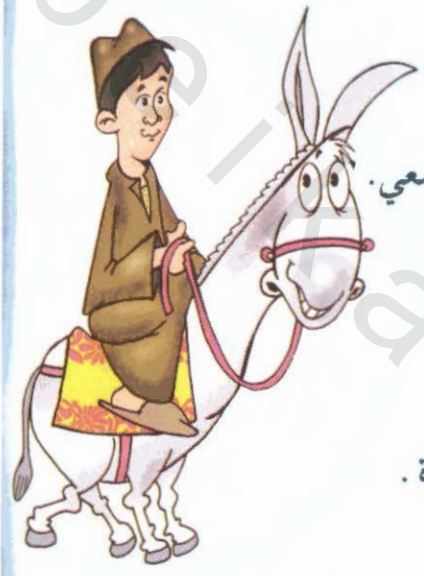

ـ كيف حالك يا أبا عبدالله؟

ـ الحمدلله يا أحمد بارك الله فيك .

ـ كيف حال حمارك ؟

ـ الحمدُ لله لكنه متمردٌ على العملِ معي.

ـ كيف ذلك ؟

ـ يرفضُ الخروج معي .

ـ ألم يخرج مطلقًا ؟!

ـ لا.. شغلته وأخرجته مرات معدودة .

ـ ما المشكلة ؟

ـ المشكلة أنه إذا سمع صوتًا .. أي صوت مثل صوت العربات يتملكه الخوفُ وينطوي جانبًا بحركات بهلوانية لا إرادية مما يعرض نفسه ويعرضني معه للخطر.

ـ سبحان الله أرجوك يا أبا عبدالله إمش معه خطوة خطوة واصبر عليه لأنه لم يخرجْ من العزبةِ منذ ولادته.

ـ الآن عرفت السبب.

- والحل يا أبا عبدالله؟

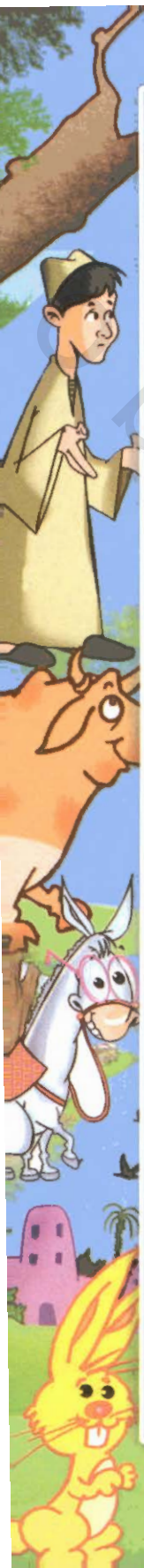

- سأحاول ربطه بجوار حمار آخر يكون أنيسًا له لفترة ليتعوَّدَ المشي في الشوارع، ولا يخافَ من العربة التي يجرها ولا يخافَ من الناس والأصوات الأخرى .

- بعد إذنك يا أبا عبد الله.. تسمح لي بزيارة لبيتك لأرى الحمار.

- تفضل يا أحمد.. البيت بيتك والحمار ملكك قبل أن يكون ملكي.

- استغفر الله يا أبا عبدالله، الحمارُ أصبح ملكك، وأنت صاحبه لكنني أحاول مساعدتك .

ـ هيا بنا لنرى الحمار .

وصلْنا إلى منزل أبي عبدالله، يسبقني أبو عبدالله في الدخول ويتركني خارجَ المنزل ويحضرُ لي الحمارَ في الفناء الذي أمام المنزل .. يا لها من لحظات أليمة. إنني أشاهدُ حمارًا آخر غير الذي أحضرته .. لقد تغيَّر لونُه الأبيض الناصع إلى ألوانٍ مقززةٍ ومؤذيةٍ للعين من عدم نظافة الزريبة.. يقفُ الحمارُ وأرجله ترتعشُ بعد أن كان يتميزُ بالعضلات القويةِ، لقد أصابه الهزال والشحوبُ، يقفُ أمامي منكسرًا حزينًا على حاله، يرفع رأسَه ويراني فيبكي ويتجه ناحيتي ويضع رأسه على كتفي الأيمن مرة وكتفي الأيسر مرة أخرى ويمسح رأسه بلطف على رجلي من أسفل إلى أعلى ..

ـ ماذا فعلت به يا أبا عبدالله؟!

ـ لم أفعل به شيئًا.

يرفعُ الحمارُ رأسَه والدموعُ تنهمرُ من عينيه يقول : لا يا أحمد لقد ضربني أبو عبدالله، ولم يصنْ العهد بينك وبينه بعدم ضربي.

ـ ولماذا ضربك؟

ـ ضربني ضربًا مبرحًا حتى أخرج للعمل معه وليجبرني على عمل لا أحبه.

ـ ولماذا لا تحب هذا العمل يا حمار.

ـ إنه عملٌ شاقٌ أجرُّ فيه عربة محملة بأشياء ثقيلة، وأبو عبدالله راكب على العربة أيضًا أنا لا أحبُّ هذا العملَ الشاقَّ .

ـ هل كل البشر على وجه الأرض يشتغلون أعمالًا يحبونها؟ إنهم يعملون من أجل أكل العيش.

ـ لكنني لست بشرًا.

ـ لا يا حمار.. أي عمل يُطلب منك تقوم به من غير كلام كثير.. لا توجد حاجة اسمها أحب العمل هذا.. فاهم يا حمار .. أنت خُلقت لخدمة البشر، وهؤلاء البشر لهم الحرية في الإستفادة منك فإذا وضعوك في عمل معين .. تعمل ولا تعترض .. فاهم يا فصيح.

ـ لا يا أحمد أنا أعترض على كلامك أنا ولدُّت حُرًا لا عبدًا مملوكًا وتربيت في كنفِ أمي وأبي وسط إخوتي وأصدقائي الحيواناتِ في بيئةٍ نظيفةٍ يسودها الحُبْ والتعاونُ وفي رفاهيةٍ ولم أتعوَّدْ الشقاءَ والتعبَ والإهانةَ والضربَ .

ـ كيف ذلك يا حمار أنت أصلًا..؟!

ـ قبل أن تكملَ كلامَك يا أحمد سوف تقولُ أن الله خلقنا للعمل الشاق نحمل أثقالاً فوق ظهورنا ونسير بها مسافات طويلة لا نعبأ بشمس حارقةٍ ولا عواصف رمليةٍ ولا رعديةٍ ونعملُ طوال اليوم دون كَلل ولا ملل ولا اعتراض.

أعرف ذلك لكني .. لست .. !

- معنى قولك أنك لست حمارًا فماذا تكون أنت يا حمار!

- أرجوك لا داعي للتهكم عليَّ يا أحمد .. أنا خلقٌ من مخلوقاتِ الله.. صحيح أننا خُلقنا لخدمةِ بني البشر لكن لست مثلما تقول يا أحمد. ألست ترى العربجي يضرب الحمير ضربًا مبرحًا دون مبررٍ وبدون رحمةٍ ولا هوادة؟!

- لا دخْلَ لك بالحميرِ كيف تُضرب كُنْ في نفسك أنت فقط.

- كيف يا أحمد أليسوا أهلي وفصيلتي؟!

- ليس هناك من فائدةٍ معك ستعيش وتموت حمارًا فصيحًا.

- إذًا فهو عذاب دون مبرر.

- كيف يا حمار؟

- منذ أحضرتني لهذا المكان القذر المظلم لم أشعرْ بأي طعمٍ في تناول ما يقدِّم لي أبو عبدالله .. وكأنه يعاقبني لرفضي العملَ معه فيرمي لي القليل من البرسيم الناشف اليابس الفائض من بقية الطيور التي تربيها زوجته في المنزل وقليلاً من خبز عَفِن لست أدري من أي مكانٍ أحضره وقليلاً من ماء عكر غير نظيفٍ وكأنه لم يغير هذا الماء منذ وصولي .

- إذًا ماذا تريد أيها الحمار؟

- أنقذني يا أحمدُ من هذا الرجل .

- يا حمار.. أبو عبدالله رجل يعرفُ ربَّنا يصلي ويؤدي حقوقَ الله ويخافُه.

- لم أقلْ شيئًا عن إيمانه ربنا يتقبل منه، لكن هذا شيء بينه وبين الله وهذا شيء آخر تمامًا.. أنا في زريبةٍ قذرةٍ من قبل مكوثي فيها..

حتى روث الحمار المتوفَى وأشياء أتقزز من ذكرها. أنت تعرف يا أحمد لماذا أخرجني أبو عبدالله حتى تراني خارج الزريبة ؟ .

ـ لماذا يا فصيح ؟

ـ حتى لا ترى السجنَ الذي أنا مسجون فيه مكان مظلم لا تدخله الشمسُ ولا الهواءُ ويسكنه العنكبوتُ وأشياء تخيفك أنت لا أحبُّ أن أذكرَها وربنا يقدرني على تحملها لأني أنا حمار..!

ـ لقد أتعبتني جدًا .. قل لي : ماذا تريد ؟

ـ أريد أن أعود إلى العزبةِ مرةً أخرى.

ـ تعرفُ أني لا أستطيعُ .. فهذا قرارُ والدي وليس قراري .

ـ أتوسل إليك يا أحمد أن تُقنعَ والدَك بطريقتك السلسة وكلامك المقنع، أمي وحشتني جدًا وأبي أيضًا وأخواتي.. وأصدقائي من البقر والجاموس والخرفان والماعز .. اشتقت إلى الجوِّ النقيِّ لا تلوث فيه ولا غبار اشتقت إلى المكان النظيفِ واللقمةِ الحلوةِ وشربِ المياه النقية الباردة بطبيعتها والتى تخرجها ماكينة المياه الضخمة لسقي أراضي العزبة والوقوف بجوارِها ورذاذ المياه يأتي على وجهي وجسدي .. اشتقت إلى ركوبك على ظهري ولمسات يديك وحنوها وإعطائي مرة جزرة ومرة أخرى خسًا أخضر ومرات عديدة بنجرًا ولِفْتًا، بجانب البرسيم الطازج كل يوم .. علاوة على الحشيش الأخضر فأرض العزبة تمتلئ به تحت أمري ..

ـ سأحاول يا حماري حاول أن تتحمل قليلاً لحين الانتهاء من المفاوضات مع والدي لعلها تنجح.

ـ لكن أرجوك أن تنبه على أبي عبد الله ألا يخرجني من هذه الزنزانة العتيقة المظلمة القذرة هذه لحين الفصل في الطعن المقدم لوالدك ويكفى أيام الأشغال الشاقة والصعبة التي تذكرني بسجن أبي زعبل أيام زمان.. وقت أن كان المساجين يكسرون الحجارة في الجبل في عز الحر والبرد والعساكر واقفين ورائهم يضربونهم بالسياط بقوة دون رحمة.

ـ وكيف عرفت سجن أبي زعبل .. السجون هذه للبشر عقاب للناس المخطئين وأنت حمار حيوان ليس لكم سجون.

- أنت يا حمار قلت بفمك أشغال شاقة وتكسير حجارة فى الجبل وهؤلاء بشر يا حمار وأنت..؟!

- أرجوك لا تكمل لأني أعرف ما سوف تقول.. على العموم أنا سوف أشكوك لـ..

- لا تقل الي جمعيات حقوق الإنسان لأنك لست إنسانا.

ـ لا .. أنا أشكو حالي لربنا الأقوى من الكل.

ـ إذًا يا حمار سوف أتصرفُ بإذن الله. ارجع مرة أخرى إلى الزنزانة ولا أريد أية مشاغبة منك حتى الانتهاء من الكلامِ مع أبي .. أعِدْه مرة أخرى إلى الحظيرة يا أبا عبدالله .

وتركتُ أبو عبدالله وأمتلكني التفكيرُ العميقُ ماذا أفعلُ لهذا الحمارِ الذي لا حَوْل له ولا قوة أجَنيْتُ على هذا الحمارِ؟

لابد أن أجد حلاً مُرضيًا للجميع لابد أن أتناولَ الحديثَ مع أبي في هذا الأمرِ لنجدَ الحلَّ الأمثلَ وعُدت إلى منزلي.

وعاد أبي من الشركةِ قبل أذان العصرِ وتناولنا وجبةَ الغذاء معه أنا وأمي وأخوتي وبعد أن أديتُ صلاةَ العصرِ.. استأذنت أبي لأحدثه :

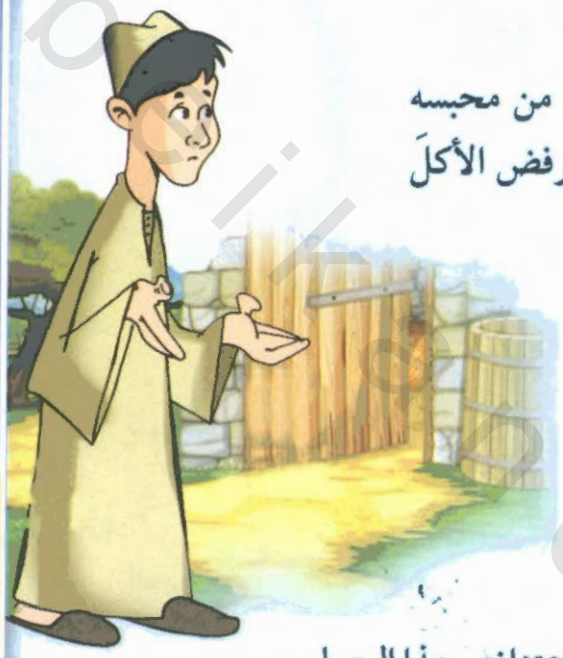

ـ ماذا بك يا أحمد ؟

ـ الحمارُ يرفضُ الخروجَ من محبسه والعمل مع أبي عبدالله.. ويرفض الأكلَ والشربَ أيضًا.

ـ إذًا فهو عامل إضرابٍ.

ـ فعلاً يا أبي .

ـ يا أحمد متى رأيته؟

ـ رأيته بالأمس.

ـ ولما الحزنُ يا بني؟

– حضرتك تعرف مقدار اعتزازي بهذا الحمارِ.

ـ نعم أعرفُ.

ـ ورضختُ لكلام حضرتك وقلت في سبيل الله وطاعتة وطاعة والدي يهون كل شيء.

ـ وماذا تريد يا أحمد؟

ـ أريد منك أن تتفضل وتتكرم وتوافق على رجوعِ الحمارِ إلى العزبةِ مرة أخرى.

- يا بني وأبو عبد الله ماذا نفعل معه؟

ـ أعطيه المال ليشتري حمارًا آخر مدربًا على العمل الشاق وجر العربات والسير في الشوارع دون خوفٍ من المارةِ وما ينتج عنهم من أصوات مخيفة.

ـ موافق يا أحمد.

ـ أنا أشكرك بشدة يا أبي أطال الله لنا في عمرك.

- وقمت بتقبيل يد والدي واستأذنته.

- تفضل يا بني.. وعلى الفوْر اتجهت ناحية بيتِ أبي عبد الله.. طرقت بابَ منزله ليفتحه.

ـ أهلاً وسهلاً يا أحمد .. تفضل.

ـ شكرًا يا أبا عبدالله.

ـ ماذا بك ؟

ـ لقد وافق أبي يا أبا عبدالله.

ـ وافق على ماذا؟!

ـ وافق على أن نأخذَ الحمارَ الموجود عندك ونعطيَك المالَ لتشتريَ حمارًا آخر بمعرفتك يسايرك في عملك ويطيعُك.

ـ ولمَ التكلفة يا بني .. أنا أكتفي بالحمار هذا وسأدرِّبه وسيصبحُ حمارًا مطيعًا وسوف يتعوَّدُ على العملِ مثلما أريدُ أنا وليس كما يريد هو.

ـ لا يا أبا عبدالله.

وبعد إلحاح منيِّ على أبي عبدالله يذكر لي المبلغ وأعود إلى بيتى وأحضر له مبلغا أكثر مما قاله أبو عبدالله.. ليذهب فى اليوم التالي ليشترى حمارًا آخر ثم أتى بعربة حمل الحيوانات لأعودَ بالحمارِ الفصيحِ إلى العزبةِ مرةً أخرى بعد أن يفرج عنه من سِجْن أبي عبدالله.

عاد الحمارُ الفصيحُ إلى عزبتنا مرةً أخرى بعد غياب أربعين يومًا بالتمام والكمال، ذاق فيها مذلة الحبسِ الانفراديِّ في زنزانةٍ مصمتةٍ مهملةٍ لا تليقُ بخلقٍ من مخلوقاتِ الله.

فورَ دخولِه أرْضَ العزبة رَفع رأْسَه إلى أعلى شاكرًا الله على عودته سالمًا.. وراح يأخذُ شهيقًا ويخرجُ زفيرًا بقوةٍ ويرفع إحدى رجليه ويبدلها بالأخرى وينهق بأعلى صوته وكأنه ينادي على من في العزبة من حيوانات مختلفة.. ليصطفوا في استقباله وليسعد بهم ويسعدوا به.

تقف السيارة أمام الحظيرة النموذجية بيته وبيت أسرته القديم وفور وقوفها يقفز الحمار بخفة وأخذ يعدو بحركات بهلوانية فرحًا بعودته.

أخذ يتجول فى طرقات وممشى العزبة يجرى ثم يهدأ ويمشى ينظر إلى الخضرة والمياه الجارية ويسمع صوتَ هدير المياه المنبعثةِ من ماكينة المياه العملاقة الموجودة فى غرفتين والتي تغذي وتسقي أرض عزبتنا وعزبة عمي جمال.. ثم يقف أمام رذاذ المياه الذي يأتي على وجهه.

ثم يجرى ويجرى وراءه الحمار الأب وتنادى عليه أمه وأخوته الحمير الصغار لينتظرهم وتعجز على الجرى وراءه صديقته الجاموسة لظروفها الخاصة بعد أن وضعت عجلين صغيرين منذ عدة أيام قليلة.

بينما تجرى الخرفان والماعز وتخرج الأرانب من جحورها تقفز وراء الحمار.

ويصيح البط والأوز والدجاج فرحين بعودة صديقهم الحمار الفصيح ويعود الحمار إلى الحظيرة بعد أن أُنهك من الجرى والتجوال داخل أرض العزبة.

ثم يقف أمامي وينحنى برأسه ثم ينهق بصوت متدرج فيه خنوع واستكانة.

ـ أنا أشكرك كثيرًا يا أحمد وممنون من مجهوداتك التي أسفرت عن عودتي إلى أرض الوطن.. أرضي وأرض أجدادي.

ـ هذا شيء طبيعي أن ترجع لأرضك وأرض أجدادك.

ـ أنا كنتُ فاقدَ الأملِ في العودةِ وكنت منتظرَ الموتِ في أي لحظة بل كنت اتمناه إنقاذًا من قلة حيلتي والحياة الصعبة التي رأيتها في السجن.

ـ حتى تعرفَ النعمةَ التي أنت تعيش فيها يا حمار.

– نعمة واحدة هذه نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى أنا عرفت قيمة كل هذه النعم التي أنعم الله بها على كل المخلوقات في هذه الدنيا.

– يكفى يا حمار كفى فلسفة واحمد الله على السلامة.. والحاج عليّ هل تتذكره؟.

– نعم أنا لا يمكن أن أنساه.

ـ سوف يحميك وينظفك ويطعمك ويسقيك ويرجعك مرة أخرى مثل أيام زمان.

– تقول للزمان ارجع يا زمان.

– إذا مر الزمان فلن يعود مرة أخرى ويكفى فلسفة.

– يكفى يا أحمد.. أنا آسف لن أتفلسف مرة أخرى.. لأنك تعرف أن الحمار غبي بطبعه.

– من الذي قال هذا الكلام.. أنت مثلا حمار ذكي وفصيح.

- ليست قاعدة كل قاعدة فيها استثناءات فأنا أكرر شكري وأنا سأكون جاهزًا حالًا لأتشرُفَ بحملك فوق ظهري طواعيةً وحبًا لأتجول بك بين أروقة العزبة مثل زمان.

- لا يا حمار أنت في أجازة لمدة يومين تستريحُ فيهما من عناء الغُربةِ والسجنِ الذي كنت فيه .

- أشكرك مرة أخرى على كرمك وعطفك عليَّ وأدعو لك أنت وأخواتك أن يبارك الله لكم في والدكم ويزيده من فضله وكرمه.

- يكفي يا حمارُ.. عنادَك لأبي عبد الله الفقير المحتاج.

- لا يا أحمد ألم يأمرْكم ربُّكم بالرحمةِ مع الحيوانِ الذي لا حول له ولا قوة .. ولست أريدُ أن أحْكي لك عن العذابِ عند أبي عبدالله انظر جلدة أبي عبد الله معلمة على جسمي.. وتعلَم يا أحمد أنه لم يضربني أحد قط.

- لكنك أخطأت في حقِّه لأنك رفضت العملَ، والعملُ شرفٌ وواجبٌ، وسأبحثُ لك عن عمل من اليوم.

- المهم أن يكون عملاً أقدر عليه، وبدون ضرب أو إهانة.

- يكفي .. يكفي: أنت حمار كثيرُ الكلام تتكلم كثيرًا خذه يا حاج عليِّ واذهب به لتنظفه.. يا لك من حمارَ ..!

أدخل مع الحاج علي الحظيرة.

بعد أن قام عَمُّ عليِّ بتنظيفِ الحمارِ وتقديم ما لذَّ وطاب له .. لم ينم الحمارُ ليلته الأولى وظل مستيقظًا طوال الليل .. جالسًا مع أسرته وأصدقائه داخل الحظيرة وأخذ يسأل عن كل من كان يعيش معه في الحظيرة.

ـ أين العجول الأربعة التي كانت تعاكسني وأنا نائم؟

ـ لقد ذبحها الحاج صلاح في وليمة وعقيقة ابنه عمر..

ـ مبارك قدوم ابنه عمر هذا شيء جميل أن يضحى بلحوم العجول من أجل الفقراء والمساكين وأحباء الحاج صلاح.

ـ وأين البط والأوز؟

ـ يَسْبَحون في مياه المساقي.

ـ يعومون بالليل.

ـ أنت تعرف أن العزبة كلها نور، لا يوجد فرق بين الليل والنهار وأنت تعرف أننا في صيف.

ـ كنت أشتاق لكم كثير الاشتياق.

ـ وأنت أيضًا يا بني .. أنا لا أصدق عينيَّ أنك رجعتَ مرةً أخرى .. حاول يا بني أن تنام قليلاً من الوقت .. إنك قد أصبت بالنحافة من كثرة التعب.

ـ دعوني أتكلمُ معكم قليلاً اشتقت إلى سماع أصواتكم.

ـ اسمع الكلام واذهب إلى النوم .. يكفي ما رأيته من عذاب ويكفي ما حدث لك.

ـ نعم يا أمي سأنام .. تصبحون على خير.

في هذه الليلة نام الحمار ساعات طويلة بعمق شديد وكأنه لم ينم منذ خروجه من وطنه.

وفي اليوم التالي يستيقظ الحمار عند أذان الظهر.

لم يجد أحدًا في الحظيرة، الكل ذهب إلى عمله مبكرًا وتركوه نائمًا لظروفه الخاصة .

obeikandl.com

قام الحمار يلعق ما في أحد الأطباق المملوءة بخيرات الله ثم أخذ «حزمة» من ورق الخس بفمه وخرج إلى خارج الحظيرة وتمدد يلوك ورقة ورقة ثم انقلب على ظهره منتشيًا يلعب بأقدامه عابثًا في الفضاء كالطفل السعيد وأخذ يتمرغ على الأرض النظيفة المزروعة بالنجيلة الخضراء الناعمة رافعًا رأسه وأنفه لأعلى قائلًا: الله شمي يا أنفى النسيم والهواء النقي المشبع بروائح الأشجار المثمرة وليست زريبة أبى عبد الله.. أدعو الله ألا يعيدها مرة أخرى.

يسمعُ الحمارُ هديلَ الحمامِ الموجود في برجِ الحمام المجاور للحظيرة يعلو ويرتفع فرحًا بعودته.

وأسراب البط المتجه للترعة حيث تتوقف كلُّ بطة أمامَ الحمارِ تدغدغ إبطها بمنقارها وتنحني نصف انحناءة فرحة بعودة الحمار، ثم تنزل الترعةَ لتأخذ حمامها في مياه الترعة.

في اليوم المعتادِ لذهابنا إلى العزبة وهو يوم الجمعة.. فوْرَ وصولِنا إلى مبنى الدار الكائنة بأرض العزبة.. جاءني عمُّ عليٍّ ليخبرني أنه جهز الحمارَ بدل الحصانِ وذهب ليحضره لي امتطيت الحمارَ وأمرته أن يسير دون توجيه منيٍّ حتى اللجام تركته فهو يعرف الطرق جيدًا.

أحسستُ بما يحسه الحمارَ من سعادةٍ فأنا أعرفه منذ صغره.

أخذ يحدثني وأحدثه عن أحوال البشر وأفعالهم وكيف أن البشر يمتلئون بالأحقاد والحسد لبعضهم ويتعجب الحمار من ذلك.. لماذا كل هذا ؟!

فقلت للحمار الفصيح يكفي حديثك هذا عن البشر ولا تَنْسَ أنني إنسان فأغلق الحمار فمه وأعلن اعتذاره وعودته إلى أصله الحيواني واعتزاله الفصاحة وأشياء أخرى .. وأنه حمار أبكم أصم.. لا يفهم لغة الإنسان ..!